يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ.. (٦٢) ﴾ [النور] فالأمر متروك لرسول الله يُقدِّره حَسْب مصلحة المسلمين العامة ، فلَهُ أن يأذنَ أو لا يأذنَ .

إذن : لا بُدَّ من استئذان رسول الله ﷺ فيأذن لمَنْ يشاء منهم ممَّنْ يرى أن فى الباقين عوضاً عنه وعن رأيه ، فإن استأذن صاحب رأى يستفيد منه المسلمون لم يأذن له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ.. (٦٢) ﴾ [النور] ، وكأن مسألة الاستئذان والقيام من مجلس رسول الله ﷺ أمر لا يريده الله تعالى .

حتى إن استأذنتَ لأمر يهمك ، وحتى إنْ أذن لك رسول الله ، فالأفضل ألاَّ تستأذن ؛ لأن الرسول ﷺ حين يدعو لأمر جامع يُهمّ جماعة المسلمين ، يجب ألاَّ ينشغل أحد عمَّا دُعى إليه ، وألاَّ يُقدِّم على مصلحة المسلمين ومجلس رسول الله شيئاً آخر ، ففى الأمر الجامع ينبغى أنْ يُكتِّل الجميع مواهبهم وخواطرهم فى الموضوع ، وساعة تستأذن لأمر يخصُّك فأنت منشغل عن الجماعة شارد عنهم .

فحين تنشغل بأمرك الخاص عن أمر المسلمين العام ، فهذه مسألة تحتاج إلى استغفار لك من رسول الله ، فالرسول يأذن لك ، ثم يستغفر لك الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾

قولـه سبحـانه : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا .. (٦٣) ﴾ [النور] فأنتم يدعو بعضكم بعضاً فى مسألة خاصة ، لكن الرسول يدعوكم لمسألة عامة تتعلق بحركة حياة الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة .

أو : أن الدعاء هنا بمعنى النداء يعنى : يناديكم الرسول أو تنادونه ؛ لأن لنداء الرسول ﷺ آداباً يجب مراعاتها ، فهو ليس كأحدكم تنادونه : يا محمد ، وقد عاب القرآن على جماعة لم يلتزموا أدب النداء مع رسول الله ، فقال : ﴿ إنَّ الَّذين يُنادُونك من وراء الْحُجُرات أكْثرُهُمْ لا يعْقلُون (٤) ﴾ [الحجرات]

فأساءوا حين قالوا : يا محمد ، ولو قالوا حتى : يا أيها الرسول فقد أساءوا ؛ لأنه لا يصحّ أنْ يتعجّلوا رسول الله ، ويجب أنْ يتركوه على راحته ، إنْ وجد فراغاً للقائهم خرج إليهم ، إذن : أساءوا من وجهين .

ولا يليق أن نناديه ﷺ باسمه : يا محمد . لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله ، فلا بُدَّ أن نناديه بهذا الوصف . ولِمَ لا وربه عز وجل وهو خالقه ومصطفيه قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ، ومن أولى العزم ، فناداهم بأسمائهم :

﴿ يَـٰآدمُ اسْكُنْ أنت وزوْجُك الْجنَّة .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ يَـٰنُوحُ اهْبطْ بسلامٍ مِّنَّا .. (٤٨) ﴾ [هود]

وقال : ﴿ يَـٰإبراهيمُ (١٠٤) قدْ صدَّقْت الرُّءْيا .. (١٠٥) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ يَـٰموسَىٰ إنِّى أنا اللَّهُ .. (٣٠) ﴾ [القصص]

وقال : ﴿ يَـٰعيسى ابْن مرْيم أأنت قُلْت للنَّاس .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

وقال : ﴿ يَـٰداوُودُ إنَّا جعلْناك خليفةً فى الأرْض .. (٢٦) ﴾ [ص]

لكن لم يُنَادَ رسولَ الله ﷺ باسمه أبداً ، إنما يناديه بـ «يـٰأيها» الرسول ، يـٰأيها النبى . فإذا كان الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يجعل دعاءه للرسول كدعائه لباقى رسله ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغى أن نقول : يا أيها الرسول ، يا أيها النبى ، يا رسول الله ، يا نبى الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرِّف .

وكما نُميِّز دعاء رسول الله حين نناديه ، كذلك حين ينادينا نحن يجب أن نُقدِّر هذا النداء ، ونعلم أن هذا النداء لخير عام يعود نفعه على الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور]

لا شكَّ أن الذين يستأذنون رسول الله فيهم إيمان ، فيُراعون مجلس رسول الله ، ولا يقومون إلا بإذنه ، لكن هناك آخرون يقومون دون استئذان : ﴿يَتَسَلَّلُونَ .. (٦٣)﴾ [النور] والتسلل : هو الخروج بتدريج وخُفْية كأنْ يتزحزح من مكان لآخر حتى يخرج ، أو يُوهمك أنه يريد الكلام مع شخص آخر ليقوم فينسلتُ من المجلس خُفْية ، وهذا معنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا .. (٦٣)﴾ [النور] يلوذ بآخر ليخرج بسببه .

ويحذر الله هؤلاء : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .. (٦٣)﴾ [النور] والتحذير إنذار بالعاقبة السيئة التى تترتب على الانسحاب من مجلس رسول الله ، كأنه يقول لهم : قارنوا بين انسحابكم من مجلس الرسول وبين ما ينتظركم من العقاب عليه .

وقال : ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .. (٦٣) ﴾ [النور] لا يخالفون أمره ، فجعل في المخالفة معنى الإعراض ، لا مجرد المخالفة ، فالمعنى : يُعرضون عنه .

والأمر : يُراد به فعل الأمر أو النهي أو الموضوع الذي نحن بصدده يعني : ليس طلباً ، وهذا المعنى هو المراد هنا : أي الموضوع الذي نبحثه ونتحدث فيه ، فانظروا ماذا قال رسول الله ولا تخالفوه ولا تعارضوه ؛ لأنه وإنْ كان بشراً مثلكم إلا أنه يُوحَى إليه .

لذلك يحدد الرسول ﷺ مركزه كبشر وكرسول ، فيقول : « يَردُ عليَّ - يعني من الحق الأعلى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

لذلك كان الصحابة يفهمون هذه المسألة ، ويتأدبون فيها مع رسول الله ، ويسألونه في الأمر : أهو من عند الله قد نزل فيه وَحْي ، أم هو الرأي والمشورة ؟ فإنْ كان الأمر فيه وَحْيٌ من الله فلا كلامَ لأحد مع كلام الله ، وإنْ كان لم يرد فيه من الله شيء أدْلَى كُلٌّ منهم برأيه ومشورته .

وهذا حدث فعلاً في غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ منزلاً رأى بعض الصحابة أن غيره خير منه ، فسألوا رسول الله : أهذا منزل أنزلكَهُ الله ، أم هو الرأيُ والمشورة ؟ فقال : « بل هو الرأي والمشورة »[1] فأخبروه أنه غير مناسب ، وأن المكان المناسب كذا وكذا .

---

(١) قال الحباب بن المنذر بن الجموح : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله » الحديث . أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢/٦٢٠) نقلاً عن ابن إسحاق .

وقوله تعالى : ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ .. (٦٣)﴾ [النور] أى : فى الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور] أى : فى الآخرة ، فإنْ أفلتوا من فتنة الدنيا فلنْ يُفلتوا من عذاب الآخرة .

ثم تختم السورة بقوله تعالى :

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾

ألا : أداة تنبيه لشىء مهم بعدها ، والتنبيه يأتى لأن الكلام سفارة بين المتكلم والمخاطب ، المتكلم عادة يُعد كلامه ، ولديْه أُنْسٌ بما سيقول ، لكن المخاطب قد لا يكون خالى الذِّهْن فيفاجئه القول ، وربما شغله ذلك عن الكلام ، فيضيع منه بعضه .

والحق - تبارك وتعالى - يريد ألاَّ يضيع منك حرف واحد من كلامه ، فينبهك بكلمة هى فى الواقع لا معنى لها فى ذاتها ، إلا أنها تنبهك وتُذهب ما عندك من دهشة أو غفلة ، فتعى ما يُقال لك ، وهذا أسلوب عربى عرفته العرب ، وتحدثتْ به قبل نزول القرآن .

ويقول الشاعر(١) الجاهلى يخاطب المرأة التى تناوله الكأس :

أَلاَ هُبِّى بصَحْنك فَاصْبَحِينَا ... وَلاَ تُبْقِى خُمُورَ الأَنْدرينَا(٢)

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو فتى وعمر طويلاً ، توفى ٤٠ ق . هـ ، وهو الذى قتل الملك عمرو بن هند ، مات فى الجزيرة الفراتية . [الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤] .

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم . والصحن : القدح العظيم . والأندرون : قرى بالشام . قال الزوزنى فى شرحه (ص ١٦٥) : « ألا استيقظى من نومك أيتها الساقية واسقينى الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر هذه القرى » .

يريد أن ينبهها إلى الكلام المفيد الذى يأتى بعد .

وبعد ألا التنبيهية يقول سبحانه : ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. ﴿٦٤﴾﴾ [النور]

والسموات والأرض ظرف فيهما كل شىء فى الكون العُلْوى والسُّفْلى ، فلله ما فى السموات وما فى الأرض أى : المظروف فيهما ، فما بال الظرف نفسه ؟ قالوا : هو أيضاً لله ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٤٢﴾﴾ [النور] إذن : فالظرف والمظروف مِلْك له سبحانه .

وعادةً ما يكون الظرف أقلَّ قيمةً من المظروف فيه ، فما بداخل الخزينة مثلاً أثمن منها ، وما بداخل الكيس أثمن منه ، وكذلك عظمة السموات والأرض بما فيهما من مخلوقات . لذلك إياك أنْ تجعل المصحف الشريف ظرفاً لشىء مهم عندك فتحفظه فى المصحف ؛ لأنه لا شىء أغلى ولا أثمن من كتاب الله ، فلا يليق أن تجعله حافظةً لنقودك ، أو لأوراقك المهمة ؛ لأن المحفوظ عادة أثمن من المحفوظ فيه .

وفى الآية : ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٦٤﴾﴾ [النور] أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور ، فكلُّ ما فى السموات ، وكل ما فى الأرض مِلْكٌ لله وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، وعلى كثرة المفترين فى الألوهية والفرعونية لم يَدَّعِ أحد منهم أن له مُلْكَ شىء منها .

حتى إن النمرود الذى جادل أبانا إبراهيم عليه السلام وقال : أنا أُحى وأميت لمَّا قال له إبراهيم : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة] لم يستطع فِعْل شىء وبُهِت وانتهت المسألة .

ومُلْكه تعالى لم يقتصر على الخَلْق ، فخَلَق الأشياء ثم تركها تؤدى مهمتها وحدها ، إنما خلقها وله تعالى قيومية على ما خلق ، وتصرّف فى كل شىء ، فلا تظن الكون من حولك يخدُمك آلياً ، إنما هو خاضع لإرادة الله وتصرّفه سبحانه .

فالماء الذى ينساب لك من الأمطار والأنهار قد يُمنع عنك ويصيب أرضك الجفاف ، أو يزيد عن حَدّه ، فيصبح سيولاً تغرق وتدمر ، إذن : المسألة ليست رتابة خَلْق ، وليست المخلوقات آلاتٍ (ميكانيكية) ، إنما لله المُلْك والقيومية والتصرُّف فى كل ما خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [النور] لفهم هذه الآية لا بُدَّ أن نعلم أن علاقة الحق - تبارك وتعالى - بالأحداث ليستْ كعلاقتنا نحن ، فنحن نعلم من علم النحو أن الأفعال ماضٍ ، وهو ما وقع بالفعل قبل أن تتكلم به مثل : جاء محمد ، ومضارع وهو إما للحال مثل : يأكل محمد . أو للاستقبال مثل : سيأكل محمد .

أما بالنسبة لله تعالى ، فالأحداث سواء كلها مَاضٍ وواقع ، وقد تكلمنا فى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النحل]

ومعلوم أن الاستعجال يكون للأمر الذى لم يأتِ بَعْد ، والقيامة لم تأت بعد لكن عبَّر عنها بالماضى (أتى) لأنه سبحانه لا يعوقه ولا يُخرجه شىء عن مراده ، فكأنها أتتْ بالفعل ، إذن : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النحل] ليست منطقية مع كلامك أنت ، إنما هى منطقية مع كلام الله .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [النور] فقد : للتحقيق ، ويعلم بالنسبة لله تعالى تعنى عَلِم ، لكنه بالنسبة لك

أنت يعلم . إذن : فهناك طرف منك وطرف من الحق سبحانه ، فبالنسبة للتحقيق جاء بقد ، وبالنسبة للاستقبال جاء بيعلم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) ﴾ [النور] وجاء في آية أخرى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

فإياك أن تفهم أن نظر الله ورؤيته سبحانه للأبعاض المختلفة فى الأماكن المختلفة رؤية جزئية ، تتجه إلى شيء فلا ترى الآخر ، إنما هى رؤية شاملة ، كأن لكل شيء رؤية وحده ، وهذا واضح فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ .. (٣٣) ﴾ [الرعد]

فسبحانه لا يشغله سَمْع عن سمع ، ولا بَصَر عن بصر ، فبصره سبحانه محيط ، واطلاعه دقيق ؛ لذلك يأتى جزاؤه حقاً يناسب دقّة اطلاعه ، فإياك إذن أن تغفل هذه الحقيقة ، فربُّك قائم عليك ، ناظر إليك ، لا تَخْفى عليه منك خافية .

فيا مَنْ تتسلل لواذاً احذر ، فلا شيء أهمّ من مجلس مع رسول الله ﷺ ، ورسول الله نفسه كان حريصاً أن يرى أصحابه في مجلسه باستمرار ، والله تعالى يوصيه بذلك فيقول له : ﴿ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الكهف]

وكان بعض أصحابه يُصلِّى خلفه ، فكان عندما يسلم ينصرف الرجل مسرعاً فيراه ﷺ فى أول الصلاة ، ولا يراه فى آخرها ،

---

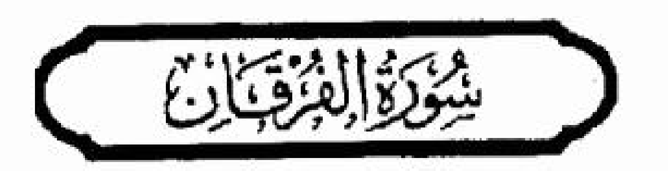
(١) عزب الأمر يعزب : بَعُدَ وغاب وصعب مطلبه . أى : لا يغيب ولا يبعد عنه أى شيء فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ٢/١٨] .

فاستوقفه فى إحدى الصلوات وقال له : « أزهداً فينا » ؟ وكأنه يعزّ على رسول الله أن يجد أحد أصحابه لا يتواجد مع حضرته ، أو يَزْهَد فى مجلسه ، فيُحرم من الخيرات والتجليات التى تتنزل على مجلس رسول الله ، ويُحرَم من إشعاعات بصيرته وبصره إليه .

لذلك أُحرِج الرجل ، وأخذ يوضح لرسول الله ﷺ ما يدفعه كل صلاة إلى الإسراع بالانصراف ، وأن هذا منه ليس زهداً فى حضرة رسول الله ومجلس رسول الله ، فقال : يا رسول الله إن لى امرأة بالبيت تنتظر ردائى هذا لتصلى فيه .

يعنى : ليس لديه فى بيته إلا ثوبٌ واحد ، فدعا له النبى ﷺ بالخير ، فلما عاد لزوجته سألته عن سبب غيابه ، فقصَّ عليها ما كان من أمر رسول الله ، وأنه استوقفه وحكى لها ما دار بينهما ، فقالت لزوجها : أتشكو ربك لمحمد ؟

ولما سألوها بعد ذلك قالت : « غاب عنى مقدار مائة تسبيحة » فانظر إلى ساعتها التى تضبط عليها وقتها .


سُورَةُ الفُرْقَانِ



بعد أن خُتِمَتْ سورة النور بهذه الآية التى تبين مالله تعالى من مُلْك وقَهْر وجبروت ، وبينَتْ أن العودة إليه والرجوع يوم القيامة للحساب ، بدأتْ سورة الفرقان تُبيِّن أن هذا الملْك ليس مُلْك استعباد ، إنما مُلْك رحمة ، نظمت لكم الحياة لتعيشوا فيها على هُدىً ونور ، فقال تعالى :

سورة الفرقان (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾

﴿ تبارك .. ۝١ ﴾ [الفرقان] مادة الباء والراء والكاف عادةً تدلُّ على البركة ، وهى أن يعطيك الشىء من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كما لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفى العشرة ، فتقول : إن هذا الطعام مُبَاركٌ أو فيه بركة .

---

(١) سورة مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ .. ۝٦٨ ﴾ [الفرقان] إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٧٠ ﴾ [الفرقان] وقال الضحاك : هى مدنية ، وفيها آيات مكية . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٦٣] وسورة الفرقان عدد آياتها ٧٧ آية ، وهى السورة رقم (٢٥) فى ترتيب سور المصحف ، أما فى ترتيب النزول فهى السورة رقم (٤١) نزلت بعد سورة يس ، وقبل سورة الملائكة (سورة فاطر) .